عنوان المحاضرة الثالثة عشر:

أثر السرد العربي في الآداب الغربية "الايطالية والفرنسية والألمانية" :

عنوان المحاضرة الثالثة عشر: أثر السرد العربي في الآداب الغربية "الايطالية والفرنسية "والألمانية :

ظهر تأثير النصوص السردية العربية القديمة في الأعمال السردية الغربية، خصوصًا في الأدبية الإيطالي والفرنسي فقد نهل الأدباء العرب من التراث السرد العربي ،واستلهموا منه معظم إبداعاتهم، وفيمايلي سنتوقف عند أهم الأعمال السردية الغربية المتأثرة بالنصوص السردية العربية القديم:

أولًا: أثر أدب السير في الآداب العالمية :

تعددت أشكال السرد في السير، وقد وجدنا أن نوع السيرة الذاتية العربية حظي باهتمام الأدباء الغربيين .

1– السيرة الذاتية بين العرب والغرب :

تعود الأدباء على كتابة سيريهم الذاتية في أعمال أدبية نثرية،وهي عبارة عن ترجمة خاصة لحياتهم ، وكان للأدباء العرب قصب السبق في هذا المجال،وعندما نتحدث عن السيرة الذاتية عند الغرب،نجد أنه قد عادت بدايات السيرة الذاتية إلى تلك الاعترافات التي ذاعت في"اعترافات القديس" أوغسطين،وتوالت بعد ذلك اعترافات جان جاك روسو"واعترافات مدين أفيون"لتوماس دي كينسي"،ومن الواضح أن الاعترافات مهدت لظهور فن السيرة الذاتية عند الغرب،وهناك من ألوان السيرة الذاتية مايعرف باليوميات،وهي من الأشكال السردية مثل الاعترافات مع الإشارة إلى تفوق العرب في أدب السير لتعلقه بخصوصية الثقافة العربية،التي تميل لجمع وتدوين المآثر والبطولات الفردية أو الجماعية».

تعد الاعترافات النموذج الأول للسيرة الذاتية في الأدب الغربي ،وقد ظهرت عند رجال الدين، وتطورت إلى نموذج اليوميات،حيث شكلت بدايات للسيرة .

2–أثر سيرة عنترة في الآداب الأوروبية :

تعد سيرة عنترة بن شداد أهم وأشهر سيرة عربية،ويرى البستاني أن سيرة عنتر « تعتبر ملحمة ،ومن حيث أنها تتشابه والياذة هوميروس، فلم يقف البستاني عند حد القول، بل أظهر في أكثر من مكان هذا التشابه وأما برنار هار المستشرق الألماني فيبقي في مقدمة الذين بحثوا في سيرة عنترة ..وهو لايقتصر على درس سيرة عنترة من حيث فنها القصصي،بل يحاول أن يبين قيمة هذا الأثر الادبي بين الحكايات البطولية الكثيرة وخاصة أغنية رولاند.،فهو يدعي أن سيرة عنترة وأغنية رولاند تتشابهان ».

ومنه كانت قصة عنترة أبرز حدث بطولي شهده العرب في جاهليتهم،وتأثر الأدباء بقصته كثيرًا،فقد صورت قصة عنترة مظاهر البطولة والفروسية في أسمى معانيها،وبالإضافة إلى ذلك الطابع الملحمي الذي اتصفت به .

وأفرد بطرس البستاني بابًا للملاحم أو منظومات الشعر القصصي «مما يماثل الإلياذة ،فأشار إلى ضروب الشعر عند الإفرنج ،وقابل بين ملاحم الأعاجم والملاحم العربية من الشعر الجاهلي ،ومنها سيرة عنترة ».

أثرت سيرة عنترة في الآداب الأوروبية بطريقة غير مباشرة، وفيما يراه د.جرجي زيدان أن العلماء نسبوا إلى عنترة مقابلة المائة والمائتين أو أكثر وحده، وذلك مع بعد احتماله لايخالف نواميس الطبيعة ، وأما الإفرنج في قرونهم الوسطى،فإنهم نسبوا إلى الإسكندر المقدوني خرافات تخالف النواميس الطبيعية،فقد قالوا أنه لقي في أثناء فتوحه أقوامًا نصف أجسادهم السفلى آدمي والنصف العلوي وحشي ..وصوروا ذلك في كتبهم ونشروه بين عامتهم».

ونلاحظ هنا حجم المبالغة عند الإفرنج ، ولطالما ارتبطت قصص البطولة بأحاديث المبالغة والتهويل، إذ يتم تصوير البطل بأنه إنسان خارق للعادة يصارع مخلوقات عجيبة (الغول)،وعلى نحو مافعل الإفرنج في وصف بطولات الإسكندر المقدوني ، وهي بطولات مزعومة لايقبلها العقل .

ثانيًا– أثر السرد الاجتماعي العربي في الآداب الغربية :

احتل الموضوع الاجتماعي مكانة هامة في الأعمال السردية العربية ،وعكست تلك الأعمال صور من الأوضاع الاجتماعية السيئة بأسلوب ساخر عند العرب والغرب على حد سواء .

1–نموذج البخيل في الأدب العربي :

مماهو معلوم أن البخل هو ظاهرة إنسانية سيئة اشتركت فيها جميع الثقافات الإنسانية،ولذلك نجدها قاسم مشترك في التعبير بين الآداب العالمية، ورجعت بدايات الكتابة عن ظاهرة البخل إلى العرب«وقد جمع الجاحظ في كتابه البخلاء الكثير من الطرائف والنوادر والمضحكات،التي تعرض لها في حياته مع هؤلاء البخلاء،ويعد الجاحظ أبرز أديب تحدث عن ظاهرة البخل».

استلهم الأدباء نموذج البخيل من الجاحظ، ومع كثرة التأليف في ظاهرة البخل إلا أن الجاحظ كان له صدى أكثر من أدباء عصره.

2– نموذج البخيل في الأدب الغربي :

لقد تكرر اقتباس المضمون المتعلق بنموذج البخيل عند الأدباء العرب في الأدب الأوروبي عدة مرات ،حيث اقتبسه "جيلي" في ملهاه "لاسبورتا"عام 1543م جونسون في ملهاته "القضية تغيرت" عام 1597ثم اقتبسه موليير عام 1668 في مسرحيته "البخيل" وجرى الحديث عن البخل في القصص العربية والغربية كنموذج إنساني مقيت ، واختلفت طرق تصوير البخل عند الأدباء».

عالج الأدباء العرب والغرب على حد سواء في نصوصهم السردية ،ولايخفى تأثر أدباء الغرب ببخلاء الجاحظ وظهر هذا التأثير في طريقة المحاكاة في الأسلوب والصورة .

ثالثًا–أثر السرد العجائبي في الآداب الأوروبية :

شكلت الحكايات العجيبة الخرافية أحد أبرز مواضيع السردية العربية القديمة وتعددت مظاهر تجلي العجائبي في النصوص السردية العربية القديمة ، وسنقف عند أثر السرد العجائبي العربي في الآداب الأجنبية الحديثة .

1– أثر رسالة الغفران للمعري في الأدب الايطالي :

و تعد رسالة الغفران لأبي العلاء المعري رسالة نثرية موضوعها خيالي تحدث فيها عن زيارة للعالم الآخر ولقد عثر النقاد على «تأثر كبير برسالة الغفران لأبي العلاء المعري عند الشاعر الايطالي العظيم "دانتي الليغيري" DanteAlighieriالذي كان على صلة بثقافة المسلمين،ولايبعد أن يكون قد اطلع على قصة الإسراء والمعراج،كما اطلع على رسالة الغفران للمعري فجاءت "الكوميديا الآلهة"متأثرة بها،وكما قابل المعري امرأ القيس والنابغة وغيرهما من الجاهليين يصلون نار الجحيم،لأنهم لم يدركوا الإسلام، قابل دانتي في الجحيم شعراء اللاتين الذين ماتوا على الكفر،ولم يدكوا المسيحية،وأشهر من درس الصلة بين التراث الإسلامي وكوميديا دانتي المستشرق الاسباني "آسين بلاثيون».

المحاضرة الثالثة عشر: أثر السرد العربي في الآداب الغربية "الايطالية والفرنسية "والألمانية :

لاننسى هنا أن الحضارة العربية الإسلامية قد أثرت في الحضارات الأخرى على مدى قرون من الزمن ولذلك لانستغرب من أن يستفيد دانتي في عمله الكوميدي وغيره من الأدباء من التراث السردي العربي القديم وفي هذا الصدد نؤكد على أهمية ماقام به المعري« في وضعه للدراما الممثلة في رسالة الغفران،فإنها أشبه أن تكون من نوع الكوميديا،وإن لم يقصد تمثيلها،ومثلما أثر المعري بنثره في الأدباء أثر بشعره فشعر المعري ينتمي كله إلى الشعر الغنائي في حين ينتمي شعر جون ميلتون"الفردوس المفقود" بخاصة إلى الشعر القصصي أو الملحمي والشعر الغنائي من ناحية والشعر القصصي أوالملحمي من جهة أخرى..ويمكن أن يكون "ميلتون" قد اطّلع على شعر أبي العلاء المعري أو نثره، وهذا أمر وارد الحدوث لحضور مظاهر التأثير والتأثر بين السرد العربي القديم والآداب العالمية».

تعد رسالة الغفران لأبي العلاء المعري أهم نص العجائبي استهوى العديد من أدباء الغرب، ومن أبرزهم الشاعر الايطالي العظيم "دانتي الليغيري" عمله الكوميدي الخالد "الكوميديا الآلهة".

2- أثر قصص "ألف ليلة وليلة" في الآداب الغربية:

تجدر الإشارة إلى أنه تجاوز تأثير "ألف ليلة وليلة "البلاد العربية إلى أوروبا عن طريق ترجمة "جالان" لها،الذي غيَّر فيها بما يناسب الذوق الأوروبي».

صدرت ترجمات عديدة بلغات أوروبية لقصص ألف ليلة وليلة نظرًا لكونها مثيرة للإعجاب الأدباء وللطابع الشعبي والعجائبي فيها ، وفي هذا الصدد « تعد "ألف وليلة وليلة"من القصص الشرقية التي اتجهت في رحلتها إلى الغرب،وليس من الميسور إحصاء الترجمات أو الدراسات التي ظفر بها هذا الكتاب«وتذكرنا الحكاية التي رواها الكاتب الاسباني"لويس ثاباتا دي شابس" في كتابه "المنتخبات" بحكاية في ألف ليلة وليلة التي حدثت في بغداد، حيث يقع البطل المخذول في مأزق متشابه».

عقد النقاد مقارنة بين قصص "ألف ليلة وليلة" ورواية"البحث عن الزمن الضائع "للكاتب الفرنسي"مارسيل بروست "،فمن حيث الدلالة الاجتماعية نجد أن الجارية في ألف ليلة وليلة هي دومًا مولعة بالآخر محبة له متعلقة به مستسلمة خاضعة، إذا أحبت ليس لمشاعرها حدود،وأما إذا انتقلنا إلى البحث عن الزمن الضائع"فنجد أشكالًا من هذا الصراع فيتخذ تارة شكل الصراع الداخلي صراع حول الهوية الجنسية، فالسيد دي شارلوس يعاني من الهوية الجنسانية في قصة (سادوم وعمورة) وتشترك "ألف ليلة وليلة"ورواية"في البحث عن الزمن الضائع" في ظاهرة التركيز على الفوارق الاجتماعية،ففي "ألف ليلة وليلة "تم التركيز على طبقتين رئيسين الطبقة العليا والطبقة الدنيا المهمشة في حين أن الالتفات إلى الطبقة المتوسطة لايأتي إلا لمامًا».

لقد تحولت شهرزاد إلى رمز أفروديتي في حضورها المعنوي الذي يخلط الجنس بالمعرفة ، ومن يقرأ ألف ليلة وليلة يجد قصة "الحصان الأبنوس"وليدة هذه القصة،وأن هذه القصة قد انتقلت عن ألف ليلة وليلة مع شيء من التعديل نقلًا عن أسبانيا إلى أوربا وكتبها "تشوسر" ، ونتحدث عن دور القصة العربية في إنماء هذا الفن بالأدب الأوروبي حيث وفدت إليه من جهات مختلفة أكبر جهة منها الأندلس العربية المسلمة،وقد كان من بين تأثيرها الملموس أنها في نطاق القصة غيرت كثيرًا من طابع الملحمة،وإن الباحثين تعقبوا طائفة من موضوعات قصص شهرزاد، فوجدوا لها صدى في قصص أسبانية،ومنها المعجزة الثالثة والعشرون لبرينو.

وفي هذا الصدد أكدت الكاتبة إيزابيل أليندي دَيْنها لشهرزاد بطلة "ألف ليلة وليلة" راوية بلاد العرب العجيبة التي سحرت بلسانها الذهبي سلطانًا جائرًا على امتداد ألف ليلة وليلة».

المحاضرة الثالثة عشر: أثر السرد العربي في الآداب الغربية "الايطالية والفرنسية "والألمانية :

ومنه إذن نقف في الأخير عند ريادة قصص ألف ليلة وليلة من حيث الصياغة السردية المميزة فيها ،فتعد أن حكايات ألف ليلة وليلة من الثراء والتنوع والتشويق ..الخ ،وكل هذه العناصر جعلت تأثيرها مستمرًا في الآداب العالمية، وكان للثقافة الشعبية الدور الكبير في هذا التنوع،وتكمن أهمية كتاب "ألف وليلة وليلة"في عرضه لمواضيع شاملة جمعت بين ثقافات إنسانية عديدة، وصورت قصصه عادات وتقاليد الشعوب الشرقية.

رابعًا –أثر قصص كليلة ودمنة في الأدب الفرنسي:

تأثر الكاتب الفرنسي لافونتين بكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع«واستطاع لافونتين أن يعيد الحياة لأدب الحيوان بكل أبعاده،ويبعثه حيًا مقتفيًا دون تقليد مدرستين...ومن هاتين المدرستين استلهم لافونتين أصالة حملت هذا الفن إلى تحديد عملي وذوقي جمع في جوانبه أهدافه،ومن المؤكد أن الشاعر الفرنسي لافونتين كان قد اطلع على ترجمة فرنسية لهذه الترجمة "أنوار سهيلي" فأعجب بها، وصادفت هوى في نفسه ،فقد كان لافونتين شغوفًا بطباع الحيوان ودراسة أحواله وعاداته،واتخذ لافونتين بعض أقاصيصه وسيلة للنقد الاجتماعي فوازن بين بعض نماذج الحيوان واستخدام عنصر الحيوان كبطل لهذه القصص،فإنه حمل كتاب كليلة ودمنة في طياته تفاعلات رمزية».

إن تأثر لافونتين بأسلوب ابن المقفع واضح في نسج قصص على لسان الحيوان بأسلوب رمزي حديث «وإن تكتيك الأسلوب وصفاته الخاصة لدى الأديبين لافونتين وابن المقفع تطلب لونين من الملاحظات، فعلى مستوى تطور الحكاية نجد أن من السهل المقابلة هنا بين نمط كلاسيكي للحكاية ، وآخر أكثر دقة حيث التجنيح ، والمفاجأة الشعرية والخيال المبدع».

مما هو معلوم أن غاية هي توجيه نقد هادف للمجتمع «وطريقة لافونتين في النظم عدد من الأدباء في العصر الحديث منهم محمد عثمان جلال (المصري) وإذا كان لافونتين ختم بعض أقاصيصه بنقد المجتمع ، الذي عاش فيه كذلك كان أحمد شوقي يختتم هذه المنظومات بأبيات رائعة في الحكمة،وكان يسير على طريقة كليلة ودمنة فيما نظم من هذه الأقاصيص ».

ومنه نلاحظ علاقة التأثير والتأثر المتبادلة بين الشرق الذي مثله ابن المقفع بنصه كليلة ودمنة ، والغرب الذي مثله لافونتين في سرد قصص هادفة على لسان الحيوان .

خامسًا– أثر المقامات في الأدب الألماني :

دُرست مقامات الحريري في جامعة السوربون الفرنسية، وشرحها المستشرق الفرنسي"سيلفيستر دوساسي"وينتقد عليها أدباء الإفرنج من جهة قصر المقامات وعدم الاعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما ألفه الإفرنج أو اليونان قديمًا،وإنما صرف الحريري عنايته إلى سبك الألفاظ،وورد الكثير من الشبه في شخصية البطل المراوغ عند الحريري وكافكا، ويقدم الحريري في مقامته الحرامية صورة البطل "أبي زيد السروجي" فقد ذاع أمره بين الناس رآه في مسجد بني حرام بالبصرة يخطب، فيعجب به، ويسمع الكثير عنه».

أثرت المقامات العربية في الأدب الفرنسي،وتدولها النقاد في الدراسات الأكاديمية ،وحصل تشابه بين الحريري وكافكا في الموضوع المدروس والأسلوب السردي المتبع.

مما تقدم اتضح أثر السرد العربي القديم في الآداب الفرنسية والإيطالية والألمانية، ولايقتصر المجال على تلك النماذج ،والمجال لايتسع لذكر كل موضع التأثر والتفاعل بين السردين العربي والغربي .